العرب
الإثنين 2020/12/28
السنة 43 العدد 11924

باحث فضائي يواجه عزلته المستقبلية في «سماء منتصف الليل»

جورج كلوني يخوض مغامرة سينما الخيال العلمي في خامس تجاربه الإخراجية

تبدو فكرة المستقبل وفرضية العيش على كواكب أخرى مغرية لعدد من المخرجين السينمائيين منذ عقود، حتى أنّهم يتنافسون على تصوّر سيناريوهات للحياة وصعوباتها في المستقبل البعيد وما يمكن أن تحمله من مفاجآت للإنسانية، فتضعها أمام نهايتها المحتومة التي ستلقاها وإن هربت من الأرض نحو الفضاء الرحب.

طاهر علوان
كاتب عراقي

مع الأيام الأخيرة المتبقية من العام يطل علينا المخرج والممثل جورج كلوني بفيلم خيال علمي، بميزانية فاقت 100 مليون دولار، ويعتبر فيلما يجمع بين المغامرة والقضايا الإنسانية والسرد المطوّل في محاولة من كلوني لإيجاد أسلوب خاص يميز عمله السينمائي الجديد.

تجربة إخراجية مختلفة

منذ المشاهد الأولى، يتعرف المتفرّج على أوغستين (كلوني) الرجل المثقل بمرض الكلى بكل ما يعنيه من وهن، كثّ اللحية ومنزو عن الناس وإن هو إلا ذلك العالِم الفلكي الذي تنقلنا إلى حقيقة تاريخه مَشاهد العودة إلى الماضي رغم أنها لا تبدو متصلة اتصالا وثيقا مع الصورة الحالية والواقع الذي يعيشه أوغستين.

ماضيه المختصر لا يتعدى كونه باحثا لامعا في قضايا الفلك والفضاء ومتحمسا لاكتشاف كواكب أخرى لم يصل إليها البشر وربما يكونون في حاجة للسكن فيها في يوم من الأيام عندما لا تصبح الأرض صالحة للسكنى لأي سبب كان.

ها نحن في العام 2049 وما توقّعه العالم أوغستين قد وقع فقد ضربت الأرض كارثة جعلت العيش فيها مستحيلا ولكن من دون تفاصيل كافية حتى لنتوقع أن أوغستين هو الرجل الوحيد الباقي على قيد الحياة مختبئا في مرصده العلمي في القطب الجنوبي.

ومنذ المشاهد الأولى يتضح أن الإيقاع الفيلمي بأكمله سيرتبط بالشخصية الرئيسية، وهو الذي يشاهد يائسا خراب الأرض وانقطاع الاتصال بالمركبة الفضائية التي ذهبت إلى المشتري لاستطلاع إمكانية العيش في أحد أقماره الصالحة للبشر.

> «سماء منتصف الليل» فيلم عن دستوبيا أرضية ومغامرة فضائية وعجز إنساني»

عزلة أوغستين لا يقطعها سوى رتابة أيامه وقيامه بعملية غسل الكلى لنفسه، ثم ظهور الفتاة التي أحبها في خياله وقد يئست من أن يكرس نفسه لأسرته أو يوليها ما تستحق من أهمية بقدر تكريس نفسه لأبحاثه الفضائية وخسارة ابنته الصغيرة وتخليه عنها حتى لم يبق عالقا في مخيلته سوى اسمها إيريس.

يقدم المخرج كلوني فيلمه الخامس على صعيد الإخراج، إذ بدأ مغامرته الإخراجية منذ العام 2002 والتي غلبت عليها سمات الواقعية والسياسة والتاريخ، لكنه اختار في "سماء منتصف الليل" أن يقدم دستوبيا أرضية ومغامرة فضائية وعجزا إنسانيا وهي في الواقع المحاور الثلاثة التي بني عليها السرد الفيلمي، فالأرض المسمومة التي هلك فيها البشر ولم يعد يستطيع إنسان العيش فيها تقابلها أرض أحلام ظلت تتكرر في أفلام الخيال العلمي في الرغبة للرحيل عن الأرض المدمرة، فما الجديد الذي قدمه كلوني في فيلمه هذا عن المئات من أفلام الخيال العلمي التي أغرقت في عرض هاتين الثيمتين ومقاربتهما دراميا؟

فكرة مستهلكة

قدم جورج كلوني كل شيء من وجهة ذلك العالِم شبه المحطّم الذي لم تسعفه الفرصة لتحقيق حلمه بالسفر إلى كوكب آخر فآثر العزلة، ولم يستطع تكوين أسرة وتهرّب من مسؤوليته تجاه حبيبته وها هو يعيش هلوسات استقبال ابنته الصغيرة إيريس في منفاه الثلجي المعزول ليخوض معها المغامرة الكاملة.

لكننا ومع الإيقاع المتراخي والأحداث التي لا تكاد تحرّكها حبكات ثانوية رصينة ما نلبث أن نعيش يوميات فريق رواد الفضاء الذين علقوا قرب المشتري وصور مركبتهم وهي تسبح في الفضاء ويومياتهم ثم قصف النيازك للمركبة التي يستقلونها وصولا إلى أول اتصال بين المركبة الفضائية وبين قاعدة الأبحاث في القطب حيث يأس أوغستين من إسماع صوته لأحد.

واقعيا كانت تلك النهاية والمفارقة الحزينة التي أراد كلوني زرعها في مخيلتنا، أن من تتصل به من المركبة الفضائية هي إيريس (الممثلة كارولين سبرنغال) وهي ابنته ويتأكد من ذلك بواسطة الاسم وأن أمّها هي التي غرست فيها حب اكتشاف الفضاء وأن تكون رائدة فضاء، ويكتشف أن إيريس هي تلك الطفلة التي فرط بها ليتحقق من وجودها وهو كهل يواجه عزلته خارج الأرض.

أستطيع أن أطلق عليها مكملات لذلك البناء الدرامي، وبدت مكمّلات متشعّبة ومشتتة للانتباه تلك التي بثّها المخرج وكاتب السيناريو مارك سميث، الذي يحتل هذا الفيلم التسلسل التاسع في مسيرته، والمأخوذ عن رواية للكاتبة ليلي دالتون، من المكمّلات مثلا تلك المغامرة القاسية التي خاضها أوغستين مع الفتاة في وسط العواصف الثلجية ومنها أيضا الاسترخاء التام لفريق رواد الفضاء المعزول عن قاعدته الأرضية وعن أي أحد وهم يغنون غناء جماعيا فيما النيازك تقصف من حولهم وتصيب مركبتهم.

> الفيلم المأخوذ عن رواية للكاتبة ليلي دالتون يحتل التسلسل التاسع في مسيرة كاتب السيناريو مارك سميث

تجربة سينمائية مختلفة

في المقابل كان هنالك غنى بصري كامل في "سماء منتصف الليل" من ناحية استخدام التقنيات وانسيابية حركة رواد الفضاء وسباحتهم في المجال الرحب في مرحلة انعدام الوزن وتسلقهم بسهولة من مكان إلى آخر، فضلا عن القوقعة المكانية التي كان يعيش فيها أوغستين بالأجهزة والمعدات الإلكترونية التي نقلتنا إلى المستقبل.

وأما على صعيد البناء البصري فقد كانت هنالك حصيلة ملفتة للنظر تفوق فيها مدير التصوير مارتن رو وفريق الإدارة الفنية والمونتاج في تقديم صورة مستقبلية غزيرة متنوعة، فضلا عن البيئة المتجمدة ورحلة أوغستين عبر تلك العواصف بصحبة الطفلة إيريس فضلا عن المشاهد المؤثرة لانهيار الجليد من تحتهما وضياعهما في العاصفة في سلسلة لقطات ساد فيها البياض سوى بقعة سوداء تائهة وسط الريح لأوغستين الذي بقي تائها في هذا الفيلم.

الألمانية أولّا فون برندنبروغ وشمولية المشروع

للألمانية أولاّ فون برندنبروغ تجربة متميزة تستوحيها من الأدب والمسرح والتحليل النفسي، ومن دراستها للأيقنة في القرن التاسع عشر وتاريخ التكنولوجيا والثورة الصناعية، فانطبع كل ذلك في أعمالها التي تتراوح بين التنصيب والجداريات والأشرطة.

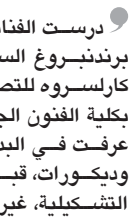

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

درست الفنانة الألمانية أُولاّ فون برندنبروغ السينوغرافيا في جامعة كارلسروه للتصميم، والفنون التشكيلية بكلية الفنون الجميلة بهمبورغ، ولكنها عرفت في البداية كمصممة مناظر وديكورات، قبل أن تدخل عالم الفنون التشكيلية، غير أن تكوينها الأصلي ترك بصمته في عملها التشكيلي، فالمسرح والإخراج وتصميم المناظر والديكور والخشبة حاضرة بكثافة في مختلف أعمالها الفنية.

وهي، إلى ذلك، تؤلّف النصوص والأغاني وترسم الديكور والأزياء وتوجه الممثلين، لأن لها مجموعة ترافقها حيثما حلّت، وتساعدها في أعمالها الفنية والسينمائية، من جهة الأداء والتنظيم، ومن جهة تجسيد تنصيباتها حيث يحتل أفرادها مواقع محددة لإنجاز ما يقع التخطيط له.

وتستعمل الفنانة الألمانية عدة وسائط ووسائل وتقنيات، من بينها الأفلام والمسرح والجداريات والرسم والأقمشة. ولئن كانت تفضل الأسود والأبيض في أفلامها، فإنها تستعمل الألوان في أعمالها التشكيلية، فتتخيّر اللون الهندسي لستائرها وتنصيبات الأقمشة والأوراق المقصوصة، ولونا مموّها ومظلّلا للوحاتها المائية ذات الشخصيات الشبحية.

بيد أنها تستفيد كثيرا من لغة المسرح والسينوغرافيا في بناء مشاريعها. فالعناصر الركحية، وستائر الكوميديا ديلارتي، وأزياء أرلوكان.. هي مرجعيات تسمح لأعمالها بالمرور من الواقع إلى التخييل أو الإيهام.

تتبدّى تنصيباتها كديكور يمكن رؤيته من خلف ومن أمام، مثلما يمكن الولوج إليه عبر الستائر، فالستارة موتيف أساسيّ في عملها، تقول عنه "إنها ذات وجهين، كمرآة ذات صفحتين، واحدة تعكس صورتنا، والثانية ما يختفي وراءها". وبما أنها تحب حجب الفضاء أو تغييره باستعمال مواد فقيرة أو بسيطة لخلق عالم آخر، فقد وجدت في القماش الوسيلة المثلى، من جهة ثمنه، ومن جهة قابليته للتحوّل والتنقل.

الموتيف الثاني الذي يتكرّر في أعمالها هو الغابة، التي تحضر بكثافة في أفلامها ولوحاتها التي تستعمل فيها قصاصات الورق الملون. هذا الموتيف، على غرار الستارة، لا يحيل على شيء مخصوص، بل يحيل على عالم الخرافات واللاوعي والحلم.

ففي اعتقادها أن ثمة أشياء كثيرة لا نراها بالعين المجردة، لأننا أقمنا علاقتنا بالعالم على ما نسمعه وما نراه فقط، والحال أن هناك أشياء وظواهر لا ندركها، لاسيما في المجتمعات التكنولوجية التي ضيّعت، حسب رأيها، علاقتها بكل الأشياء اللامرئية.

أقامت برندنبورغ منذ مطلع الألفية معارض خاصة كان آخرها هذا العام في قصر طوكيو بباريس، حيث قدمت مشروعا شاملا استوحته من المسرح، وأقامته حول مبدأ الطقوس، كإمكانية لاستكشاف العلاقات بين الفرد والمجموعة، وخلق أشياء مشتركة.

في هذا المعرض تنوّعت الثيمات والأشكال والموتيفات، وحضرت الحركة والركح والألوان والموسيقى والأقمشة، وتنوّعت أنماط الإبداع من التنصيب والنحت إلى الأفلام التي صيغت خصيصا لهذا المعرض، حيث انفتحت السردية على الأصيل والمصطنع، الواقعي والمتخيل، وعلى العالم الطبيعي والأنشطة البشرية، الداخلية منها والخارجية.

وكانت لا تلتزم بقاعدة محددة في إنجاز معارضها، بل تكيّفها بحسب الفضاء الذي ستعرض فيه، لتخلق عالما مُمسرحا يحفل بثوابت عالمها المخصوص، حيث الستائر الملونة والموجودات الضخمة والموسيقى الساحرة.

في هذا المعرض الذي حمل عنوان "الوسط أزرق"، والذي يفترض أن يتواصل حتى نهاية يناير القادم بعد أن أخلّت الجائحة بانتظامه، خلقت الفنانة متاهة لكي لا يكون المكان محدّدا، ولا يعرف الزائر أين هو بالضبط، إذ هناك زوارق وخيام وستائر مسرح، كدعوة إلى إعادة تحديد الفضاء، والأمكنة التي نريد العيش فيها. وقد وجدت في القماش وسيلة مثلى لأنه نوع من الهندسة المعمارية المضادة، ولا يحتوي على زوايا قائمة، ما يجعله طيّعا لشتى الاستعمالات.

وتعترف الفنانة الألمانية أنها تحب ما هو رخو، ناعم، طيّع، لأنها تستطيع أن تخلق منه فضاء يشمل ويحوي ويحمي. وهي تستفيد في ذلك من تجارب المهندسين المعماريين الألمانيين فرنير بانتون (1926 – 1998) ونانّا ديتزل (1923 – 2005) اللذين ابتكرا في السبعينات ما عرف بالفضاءات الرخوة أو الناعمة، مثلما تستفيد من الممارسة التقليدية القديمة التي لها علاقة بالمسرح والفولكلور والطقوس.

تقول أولاّ فون برندنبورغ "في عملي، كما في معارضي، أحب حياة الترحّل، وعدم الانحصار في مكان محدد. لذلك أستعمل القماش، الذي أعتبره مادة ترحال، حيث يمكن أن نقدّ منه خياما وبيوتا، بل نحن نحمله على أجسادنا من المهد إلى اللحد. ثم إن القماش يتنقل بسهولة، يمكن ثَنْيُه وطيّه لتقليص حجمه، ويمكن خزنه بسهولة، ونشره في أحجام كبيرة".

وتضيف "هو في نظري صنو للاستقلال، استقلال الوسائل واستقلال الأمكنة. وما حاولت القيام به هو خلق فكرة عدم الجماد، وعدم تراتبية الفضاء، لتحريك الحدود ودعوة الزوار إلى أن يكونوا طرفا في المعرض".

جمع لكل الفنون في عمل واحد

ملاحظات الرسام وموهبته

فاروق يوسف
كاتب عراقي

تكمن أهمية الإيطالي جورجيو موراندي (1890 ـ 1964) في تأكيده على ملاحظات الرسام وليس على موضوعه. فبالرغم من أنه رسم في بداية حياته المناظر الطبيعية متأثرا بالفرنسي بول سيزان، غير أنه سرعان ما عكف على رسم موضوعات الحياة الساكنة أو الصامتة "Still Live" ولم يرسم سواها طيلة حياته.

سيُقال عنه رسام الموضوع الواحد. غير أن ذلك لم يقف بينه وبين أن يكون واحدا من أهم رسامي القرن الماضي. يقول "ما يهمني هو التعبير عمّا هو مرئي". لذلك فإنه لم يرسم أشياء نفيسة، أشياء لا نراها إلاّ مرة واحدة.

لقد رسم أشياء متواضعة يمكن أن نجدها في أي مطبخ. أباريق وصحون وقنان وكؤوس وأوان. ليس هنا ما يدعو إلى الشعور بالثراء أو الندرة. رسم أشياءه بألوان خفيفة يطغى عليها الصمت وخطوط لم يهتم بإخفائها.

رسمها كما هي من غير إضافات. ولكن ما نراه بطريقة سطحية لم يكن هو الحقيقة. الموضوع الواحد لم يكن مملا. يمكنك أن ترى معرضا كبيرا لموراندي من غير أن تشعر بالملل بالرغم من أنه لم يخرج من المطبخ.

لقد أضفى الرسام على موضوعه المتكرّر شيئا من ملاحظاته التي لم تكن تتكرّر. في كل لوحة يظهر شيء جديد تمليه عين الرسام كما لو أنها لم تر الموضوع من قبل.

لقد تجلت عبقرية الرسام في تحدي موضوعه. إنه تحدي الموهبة التي تتجاوز الحرفة. هناك الآلاف من الرسامين سبقوا موراندي إلى موضوعاته، لكنهم ظلوا في حدود الحرفة التي يغلب عليها التزيين. وحده موراندي مَن استطاع أن يحوّل موضوعه العادي إلى موضوع خارق عن طريق ملاحظات الرسام التي هي أشبه باليوميات.

كان يرسم كما لو أنه يكتب يومياته. لقد كانت علاقته بعناصر الرسم تتطوّر أثناء العمل. عن طريق ذلك التطوّر صار أسلوبه يتطوّر من لوحة إلى أخرى، وإن كان ذلك التطوّر قد حدث بطريقة خفية. لقد أثبت موراندي بطريقة ملموسة أن الموضوع لا يصنع رساما ولا يمكنه في الوقت نفسه أن يقلل من قيمته.

موراندي رسام الموضوع الواحد بثراء وتنوع